

كارل ماركس / الاشتراكية العلمية

مقدمة:

يعتبر إنجلز أن فكر ماركس يمتلك ثلاث مصادر أساسية هي: الفلسفة الألمانية، الاقتصاد السياسي الإنجليزي و الاشتراكية الفرنسية. لأن ما يشد الانتباه في الفكر الماركسي هو في نفس الوقت هذا التنوع الكبير في القضايا التي تناوّلها، في مستويات التفكير و التحليل و تقنيات البرهنة من جهة، و التناقض العميق للمشروع الكلي، لأنه في بعض الحالات فإن الأمر بالنسبة لماركس يتعلق ببناء مفهوم كلايني جديد للعالم، للمجتمع و الإنسان، و في حالات أخرى و بشكل متواضع فإن الأمر يتعلق بالمساهمة في أبحاث نظرية للصراع الثوري الذي تقوم به الحركة العمالية.

لقد كانت هناك محاولات لتوحيد النصوص الأساسية و هذا المشروع تحت أشكال عديدة أهمها: الأنطولوجيا العلمية من طرف الأرثوذكسية الستالينية بعد إنجلز نفسه، أو الأخلاقية (ماكسيميليان روبل) أو الاقتصاد السياسي (كارل كوتسكي) أو علم الاجتماع (أنطونيو غرامشي) أو نظرية المعرفة (هنري لوفافر) أو علم التاريخ (لويس ألتوسير). غير أن تنوع و تعقّد النصوص قد قاوم كل هذه المحاولات.

1/- من الفلسفة إلى الثورة:

أ/- أوروبا في عصر ماركس: لقد عاش كارل ماركس داخل أوروبا كانت تعرف تحولات جذرية و ذات دلالات عميقة. فالأفكار الليبرالية التي برزت في القرن الثامن عشر قد بدأت تعرف أولى تطبيقاتها مع الثورتين الأمريكية و الفرنسية و الحركات التي جاءت بعدها. كما أن الإمبراطورية الأولى في فرنسا قد برهنت على أنه بإمكان ثورة ليبرالية أن تقود إلى ديكتاتورية، كما كان بإمكان الإمبراطور نابوليون . الذي كان يقدم نفسه على أنه ابن الثورة، أن يبعث حركات وطنية و ليبرالية من شأنها أن تؤدي إلى زعزعة الموناركيات القديمة، و أن بإمكانه أن يحقق عملية تحديث للهياكل الإدارية و الاجتماعية.

كما أن أوروبا قد عرفت تغييرات هائلة بسبب التقدم التقني و العلمي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. حيث تم إحداث تغيير جذري و كبير في ظروف الإنتاج الصناعي، مما قاد باتجاه إحداث تحوّل في أنماط العيش و الذهنيات، و كذلك على مستوى العلاقات بين الجماعات الاجتماعية. لقد كان ظهور و تبلور المذاهب و الحركات الاشتراكية هو الإجابة الإيديولوجية على تلك التحوّلات الاجتماعية، الاقتصادية و السياسية المذكورة.

ب/- عناصر في السيرة الذاتية: ولد ماركس سنة 1818 في ألمانيا من عائلة إسرائيلية اعتنقت البروتستانتية. كانت عائلته تنتمي إلى بورجوازية جيّدة و كان أباه محاميا. لقد تابع ماركس دروس في الفلسفة و التاريخ، بالإضافة إلى دروس في القانون مع هيغل. لقد كان ماركس النموذج نفسه للمثقف. فقد كان تكوينه يسمح له بالاستعداد للمناظرات المجردة و بناء النظم الكبرى.

و لكي نفهم ردود فعل ماركس، يجب أن نخطط بمحطات المرحلة التي عاش خلالها. لقد عرف و مر ماركس بتجربة كل المفكرين الليبراليين الألمان في عصره: فقد اعتقد بإمكانية تطور الدولة الليبرالية التي عرفها بروسيا بين 1811 و 1820، غير أنه أصيب بخيبة أمل. حيث كان شاهدا على تفكك البرجوازية الليبرالية، و أصبح واعيا بفشل الليبرالية. و في سنة 1844 تم طرده من بروسيا بسبب أفكاره السياسية التي لم تعجب الحكومة آنذاك. فهاجر إلى باريس أين التقى بـ **Proudhon** . و بعد أخذ و رد بين الإثنين اقتنع كلاهما بأن أفكار كل واحد متباعدة و أنه من المستحيل أن يتفقا. فتفرقا و أصبحا عدوين لا يمكن الإصلاح بينهما.

بعد ذلك تم طرده من فرنسا بطلب من سفارة بروسيا هناك على مل يبدو، فلجأ إلى بلجيكا أين التقى بزميله **فريدريك إنجلز** الذي كان قد التقاه من قبل، لتنشأ بينهما علاقة صداقة و عمل و تعاون قوية.

لقد تطورت أفكار ماركس مع مرور الوقت. فبعد أن كان ليبرالي يساري متأثرا بأفكار هيغل، ترك أمل تأسيس و إقامة الليبرالية و تصحيحها باتجاه أكثر ديمقراطية. لقد كتب العديد من الكتب و منها: العائلة المقدسة (1845) La Sainte Famille ، الإيديولوجية

الألمانية (1846) L'idéologie Allemande و هي عبارة عن دراسة نقدية عميقة لكتابات **هيغل** و **فيورباخ**، بؤس الفلسفة La Misère de la Philosophie (1847) و هو عبارة عن رد و انتقاد لـ **برودون** الذي ألف كتاب **فلسفة البؤس**؛ و في نفس السنة نشر **بيان**

الحزب الشيوعي Le Manifeste du Parti Communiste. و بعد سنة 1850 بدأت المرحلة التي خلالها بلور ماركس مؤلفه النظري

بالمعنى التام للكلمة الخاص الثورة البروليتارية. فكتب مؤلفه الضخم و الهام رأس المال Le Capital . و انطلقا من سنة 1862 تحتم على ماركس أن يقوم التوجهات الإصلاحية التي برزت بداخل الحركة التي تشكّلت حول أفكاره. و هكذا هاجم الاشتراكية الوطنية و الدولاتية التي دافع عنها لاسال. و لم يكتفي ماركس بالعمل التنظيري و المشاكل النظرية، فابتداء من سنة 1864، شارك بقوة و فعالية في تأسيس الأهمية الأولى و التي في إطارها ناضل بتفوق على التوجهات الفوضوية التي كان يعبر عنها باكونين و كان ضد أفكار برودون. و أخيرا و بعد مماته تم إكمال مؤلفاته و خاصة، كتاب الرأسمال و جزئه الأخير من طرف زميله إنجلز. توفي ماركس في لندن في 14 مارس 1883.

ج- / كارل ماركس و أفكار عصره: لقد كان ماركس في تعارض تام مع الأفكار التي كانت تحرك عصره، غير أنه تأثر بشكل خاص بأفكار كل من هيجل و فيورباخ.

ج-1- ماركس و الفكر الهيجلي: لقد كان لأفكار هيجل بالغ التأثير في ماركس. فقد كان هذا الأخير أحد تلاميذ هيجل، حيث كان جد مقربا من الحركة التي كان يمثلها الهيجليون اليساريون، غير أنه انفصل عنهم حوالي سنة 1848. إن هتة القطيعة مع الهيجليين لم تؤدي بماركس إلى رفض كل عناصر الفكر الهيجلي؛ غير أنه قدّم نقدا شديدا و لاذعا لفلسفة الحق عند هيجل.

لقد استعار ماركس من عند هيجل الطريقة الجدلية، و هو بحذ ذاته أمرا مهما. حيث ذهب ماركس إلى القول بأن الجدلية وحدها هي التي تمكّنا من فهم حركات التاريخ. كما قام ماركس بتقديم انتقادات معمّقة لفلسفة الدولة كما قدّمها هيجل من خلال الكتاب الذي وضعه بعنوان: La Critique de la Philosophie du Droit de Hegel الصادر سنة 1843. حيث اعتبر ماركس أن هيجل مكتشف الجدلية لم يحسن استعمالها، و يرى بوجود تناقضات في النظام الهيجلي، ففي هذا النظام الذي يقترحه هيجل، يرى ماركس وجود تناقض بين كون أن السلطة تكون ممثلة بالملك و البيروقراطيون و بين الفكرة، التي بالنسبة لهيجل هي التي تقود سيرورة التاريخ. فماركس لا يستطيع أن يقبل أن من يستبطن الفكرة، أي الدولة، يكون خاضعا لقوانين الوراثة، و أن نختار ملكا كما نختار عجلا، من خلال تطبيق الاتصال الوراثي. إن ماركس عندما يقدّم هتة الانتقادات يعي أن هيجل استطاع أن يهرب منها من خلال المسألة المثالية. فبالنسبة لهيجل فإن العالم الواقعي قد أصبح مثاليا و أن هذا العالم المثالي وحده هو الواقعي و الحقيقي فعلا.

يعتبر ماركس أنه ليس عن طريق الحديث عن مفهوم العائلة، الجماعة الاجتماعية أو غير ذلك، و ليس عن طريق حل التناقضات على مستوى المجرد، سيكون بإمكاننا أن نمنع وجود التناقضات. لا يمكن للدولة أن تكون مكانا لتجاوز التناقضات، لأنه ما دامت الخصوصية هي سمة مميزة للعلاقات الاجتماعية المباشرة، فإن سيادة الدولة تكون خاصة بشكل مزدوج. فهي من جهة، خاصة باعتبار أن جماعة اجتماعية خاصة هي التي تهيمن على الجماعات الأخرى التي هي خاصة كذلك. و هي خاصة من جهة أخرى، لأن الدولة خارجية عن الحياة الاجتماعية الواقعية، في حين تفترض بأنها تحقق المصالحة بين المصالح الخاصة المتباعدة. لقد أعلن ماركس عن نيته في إرجاع الهرم الهيجلي ليقف على رجليه، من خلال الانتقال من المثالية إلى المادية.

ج-2- كارل ماركس و مؤلف فيورباخ: فيورباخ فيلسوف ألماني قام ببناء فكره حول عنوان أساسي هو التنازل الإرادي الديني L'aliénation Religieuse حيث أن أشهر مؤلفاته هي روح المسيحية 1841 L'Essence du Christianisme و كتاب مبادئ فلسفة المستقبل 1845 Les Principes de la Philosophie de L'avenir.

كيف تناول فيورباخ مسألة التنازل الإرادي الديني؟. تبدو الظاهرة الدينية لفيورباخ خطيرة، لأنه يعتبر بأن الإنسان يقوم بالتنازل و إعطاء جانب من جوهره، من قيمته، لإله يقع خارجه. فالإنسان من خلال خلقه لهذا الكائن الأسطوري، يقوم بتحويل قوته و قيمته له. فمن خلال خلق الله، فإن الإنسان يزداد فقرا، و لهذا السبب يتحدث فيورباخ عن التنازل الإرادي الديني. لقد كان تأثير فيورباخ على ماركس كبيرا. فقد استعار ماركس مفهوم التنازل الإرادي ليعطيه معنى أكثر شولا و اتساعا؛ ليصبح الحديث يتعلق بالتنازل الإرادي الاقتصادي L'aliénation Economique. مثلا. حيث أن فيورباخ و باعتباره فيلسوفا ماديا فقد كان معاكسا تماما لأطروحات هيجل. فبالنسبة لفيورباخ فإن أساس التحليل الفلسفي موجود في الإنسان الملموس، في كتلة الأفراد المعبرين ماديا. و بالتالي فهو يرى أن تحرير الإنسان لن يكون ممكنا إلا إذا تمكّن من التخلص من التنازل الإرادي الديني.

بعد ذلك يقوم ماركس بتبني المسلّمة المادية حيث يعتقد أن القوى المادية هي التي تشكّل الواقع و أن تطور هته القوى هو الذي يتحكم في تطور العالم و التغيّرات التي تمس الإنسان.

2/- المادية التاريخية *Le Matérialisme Historique* :

أ/- الاختيار المادي:

بالنسبة لكارل ماركس، فإن تاريخ الإنسان في المجتمع هو تاريخ العلاقة العامة لإنسان . طبيعة . إنسان. فهو يعتبر أن نمط الإنتاج في الحياة المادية هو الذي يحدد المسار الاجتماعي، السياسي و الثقافي للحياة. إذن فإن طريقة الإنتاج هي فعل تاريخي للقاعدة. و قد تناول هته المسألة بشكل أساسي في كتابه الإيديولوجية الألمانية:

" فنلاحظ إذن الوقائع: أفراد محدّدين، يمارسون نشاط إنتاجي محدّد، يرتبطون بعلاقات إجتماعية و سياسية محدّدة. يجب على الملاحظة الأمبيريقية، و في كل حالة خاصة، أن تخرج أمبيريقيا، و من دون *mystification* و لا مجادلة، رابطة البنية الاجتماعية و السياسية مع الإنتاج. تبرز البنية الاجتماعية و الدولة باستمرار من المسار الحيوي لأفراد محدّدين، ليس كما يستطيعون أن يبدوا في تصوراتهم الخالصة و تصورات الآخرين، و لكن كما هم في الواقع، أي كما يعملون، ينتجون ماديا، إذن كما ينشطون و يتحركون في حدود الظروف المسبقة و الحالات المادية المحدّدة باستقلالية عن إرادتهم "

إذن ليس ونحي الإنسان هو الذي يحدّد كيف يكون اجتماعيا، و إنما طريقة حياته الاجتماعية هي التي تحدّد ونحيه.

ب/- دور الإنسان في التاريخ: لا يعتبر التاريخ نتيجة لفعل إرادي و مفكّر فيه من طرف الإنسان، الذي يبذل قصارى جهده من أجل تطبيق أفكار أو مشروع قد يقوم بإعداده خارج الاعتبار المادية. فمجريات التاريخ إذن، تكون محكومة بشكل مباشر من طرف تطور طرق و أنماط الإنتاج، أي عن طريق ظروف الإنتاج المحدّدة من طرف مستوى التطور العلمي و التكنولوجي في اللحظة المعنية. و تشكّل طرق إنتاج الحياة المادية: البنية التحتية L'Infrastructure؛ و كل ما يتنبّئ، كل ما يبني على أساس هته البنية يجد مصدره في هته الظاهرة الأساسية (البنية التحتية)، و تسمّى البنية الفوقية La Super structure. و باعتبار أن البنى الفوقية تحدّد وفقا للبنى التحتية، فمن المنطقي أن تكون هته البنى الفوقية من طبيعة مختلفة. فقد تكون قانونية، ثقافية، سياسية، فنية ... و لهته البنى الفوقية السياسية و القانونية حالات محدّدة للوعي الفردي تقابلها.

ج/- التطور الجدلي: يعتبر النظام الماركسي نظاما ماديا، لأن القاعدة الوحيدة للتحليل متكونة من الفعل المادي؛ حيث يرى ماركس بضرورة استبعاد كل معطى أبدي أو ماورائي. فماركس يرفض أن يعطى موضوعا ترنسندنتاليا للتاريخ، سواء تعلق الأمر بالله أو العناية الإلهية، أو لموضوع قد يكون من ابتكار الإنسان مثل مفاهيم الأمة، الدولة، الإمبراطوريات أو مفاهيم أخرى.

إن هته المادية هي جدلية، لأن كل حركة تؤدي إلى ميلاد نقيضها و يحصل انتقال لمستوى أعلى من خلال نفهي النفي. و بعبارة بسيطة فإن البنية التحتية أي طريقة الإنتاج هي التي تحدّد البنية الفوقية.

و يمكن عرض التحليل الماركسي بشكل مبسّط كما يلي:

. قبل كل شيء، يدخل الأفراد في علاقات محدّدة، ضرورية، و باستقلال عن إرادتهم. فهناك علاقات اجتماعية تفرض نفسها على الأفراد؛ فهته العلاقات هي المحدّدة و ليس طريقة تفكير الأفراد.

. بعد ذلك، و في كل المجتمع، يجب تمييز البنية التحتية التي تشكّل بواسطة قوى الإنتاج و البنى الفوقية التي تتضمن المؤسسات القانونية، السياسية و الإيديولوجية.

. و ثالثا فإن تطور المجتمع يكون محكوما بواسطة التناقض بين قوى و علاقات الإنتاج. قوى الإنتاج تمثّل إمكانيات الإنتاج المرتبطة و المتوقّفة على المستوى التكنولوجي و العلمي. علاقات الإنتاج تمثّل علاقات الملكية و توزيع الدخل. و يجب كذلك أن نأخذ بعين الاعتبار سراغ الطبقات. ففي كل المراحل نجد طبقة مرتبطة بعلاقات الإنتاج القديمة و الطبقة الأخرى، التقدمية، تريد إقامة علاقات

إنتاج جديدة تسمح بالتطور الأقصى لقوى الإنتاج. وهكذا، فإنه في إطار المجتمع الرأسمالي، فإن البرجوازية تكون مرتبطة بعلاقات الإنتاج القائمة، بالملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، في حين أن البروليتاريا تمثل قوة تقدمية تتمنى و تريد تنظيم جديد للمجتمع و ضبط العلاقات بقوى الإنتاج. إن تجاوز هذه التناقضات يمثل التطور.

. رابعا فإن الثورات لا تمثل حوادث للتاريخ و لكنها إنجاز لضرورة تاريخية. فالثورات تبرز و تحدث عندما تتحقق الشروط

الموضوعية لظهورها:

" في إطار الإنتاج الاجتماعي لوجودهم، فإن الأفراد يقيمون علاقات محددة، ضرورية، و مستقلة عن إرادتهم؛ علاقات الإنتاج هته توافق درجة من التطور التي بلغتها قواهم الإنتاجية المادية. و مجمل هته العلاقات يمثل بنية المجتمع، الأساس الواقعي و الحقيقي و الذي عليه ينهض البناء القانوني و السياسي، و هو ما تستجيب له أشكال محددة للوعي الاجتماعي. يهيمن نمط الإنتاج للحياة المادية بشكل عام، على تطور الحياة الاجتماعية، السياسية و الثقافية. فوعي الإنسان ليس هو المسؤول على تحديد وجود الإنسان، بل على العكس من ذلك فإن وجوده الاجتماعي هو الذي يحدد وعيه. و في درجة معينة من تطورها، فإن قوى الإنتاج المادية تدخل في صدام مع علاقات الإنتاج القائمة، أو مع علاقات الملكية و التي صممت في إطارها حتى تلك اللحظة، و التي ما هي إلا المظهر القانوني ... و هكذا تبدأ مرحلة جديدة للثورة الاجتماعية. حيث يرافق التحول الجذري التغيرات في الأسس الاقتصادية في كل هذا البناء الضخم "

إن هته الفقرة الأساسية تعطينا ملخصا للنظرية الماركسية، كما أن لهته الفقرة ميزة أساسية هي أنها كتبت بيد ماركس خلال السنوات الأولى لبناء نظامه الفكري.

. أخيرا في ترجمته التاريخية، فإن ماركس لا يفرق بين البنيتين الفوقية و التحتية فقط، بل يفرق كذلك بين الواقع و الوعي. فكما سبق في

الفقرة، فإن ماركس يعتبر أن كل مجتمع يتميز ببنية تحتية، أي طرق الإنتاج، و التي هي أربعة: نمط الإنتاج القديم الذي يتميز بالعبودية، النمط الإقطاعي المتميز بنظام الرق، نمط الإنتاج الرأسمالي القائم على الأجرة، و أخيرا النمط الاشتراكي الذي ينتهي فيه استغلال الإنسان الإنسان بواسطة نظام الأجرة.

3/- صراع الطبقات:

أ/- صراع الطبقات كمحرك للتاريخ: كتب ماركس في بيان الحزب الشيوعي جملة جميلة هي: " إن تاريخ كل مجتمع حتى أيامنا هته لم يكن إلا تاريخ صراع الطبقات ". و يتابع قائلا: " الأفراد الأحرار و العبيد، حكام و محكومين، إقطاعيون و أفنان ... و في كلمة واحدة، المضطهدون و المضطهدين قد قاموا بحرب لم تتوقف، في بعض الحالات كانت كامنة، و في البعض الآخر مفتوحة و واضحة؛ حرب كانت تنتهي دائما، إما بتحول ثوري للمجتمع كله، و إما بتهديم الطبقتين معا ". فالملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، و التي هي سبب و نتيجة تقسيم العمل، تجعل قوى الإنتاج تفقد لرقابة و تحكم الأفراد و هته الظاهرة تخلق حالة نرى من خلالها أصحاب الوظائف العليا يستولون على وسائل الإنتاج، و ملكية وسائل الإنتاج هته سوف تجعل وظائف الحكم خالصة بحيث أن غير المالكين سوف يبقون مهمشين دائما.

تساعد بعض وسائل الإنتاج على ميلاد و ظهور علاقات إنتاج مما يسبب هيمنة الطبقة التي تتحكم في وسائل الإنتاج. غير أن وجود بعض علاقات الإنتاج يؤدي إلى ظهور نقيضها. و بالتالي هناك صراع، لأن اضطهاد الأغلبية من طرف الأقلية لا يمكن التسامح معه لمدة طويلة. و هكذا فإن الرأسمالية قد ولدت من رحم الإقطاعية. لقد مثلت البرجوازية عاملا ثوريا في المرحلة الإقطاعية؛ هته المرحلة لم يتم التأكيد و التركيز عليها، حيث يعتبرها ماركس جديرة بالإعجاب. فقد لعبت هته البرجوازية دورا مهما؛ فمن وجهة نظر اقتصادية، فإن البرجوازية قد أخذت مكان طرق الإنتاج الإقطاعي عن طريق المعامل اليدوية، و عندما برزت الماكينات تم تأسيس المصانع. فالبرجوازية باعتبارها عنصرا ديناميكيا، قد زادت و ضاعفت من قوتها و دفعت بالطبقات الأخرى نحو الانحطاط، مثل النبلاء و الحرفيين الصغار. لقد كان لهته التحولات إنعكاسات على المستوى السياسي. لقد وصلت البرجوازية إلى السلطة و عملت على القضاء نهائيا على آخر رموز العصر القديم. فهكذا يجب

النظر إلى ثورة 1789، أي على أنها ثورة البرجوازية التي تريد القضاء على النظام الإقطاعي. لكن و من جانب آخر، فإن البرجوازية قد أدت إلى ظهور نقيضها و ضدها؛ بالفعل، فإن تطور قوى الإنتاج إلى التنديد بعلاقة الإنتاج التي تنتج عن ذلك التطور، أي الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج.

ب/- تحليل العلاقات بين البرجوازية و البروليتاريا:

ب-1- تعريف البروليتاريا: البروليتاريا هي بالضبط نقيض و عكس البرجوازية. فهي ناتجة من تطور قوى الإنتاج، و أفرادها يعيشون في الحدود التي يستطيعون عندها بيع قوة عملهم. إن وجود البروليتاريا هو أمر ممكن، بل ضروري، لأنها تزيد من حجم الرأسمال عن طريق العمل الذي تقدمه. إن قوة العمل التي يبيعها البروليتاريون هي سلعة مثل السلع الأخرى تماما، و على هذا الأساس فهي خاضعة لقوانين السوق، و بالتالي فهناك تغيرات كبيرة تطرأ على السعر المدفوع مقابل قوة العمل هذه وفقا لظروفه تلك اللحظة: " إن متوسط سعر العمل المأجور، هو الحد الأدنى للأجرة، أي قيمة الوسائل الضرورية للعيش لإطعام العامل كعامل ". لكن، و بما أن الأجرة . و هي سعر شراء العمل . هي الشرط لكي يبقى البروليتاري حيا، ففي حالة أزمة، فإن البروليتاري لن يكون لديه حل آخر سوى أن يموت. و من جانب آخر، فإن العمل يفقد أكثر فأكثر الجانب الإنساني فيه؛ إنه يفقد طابعه الشخصي و العامل أصبح إكسسوار لآلة. إن البروليتاري هو شيء مجرد أكثر فأكثر، قابل للتبادل بالكامل؛ لقد فقد طابعه الإنساني.

ب-2- استغلال البرجوازية للبروليتاريا: يتم هذا الاستغلال عن طريق القيمة المضافة La Plus Value. هذه الأخيرة تستند على نوع من نظرية القيمة. يعتبر ماركس أن قيمة سلعة تساوي متوسط كمية العمل الضرورية اجتماعيا لإنتاجها. أو أن قيمة السلعة هي كمية العمل الاجتماعي المركز في هذه السلعة. فيما يخص نظرية فائض القيمة، يقوم ماركس بعرض استغلال صاحب العمل للموظف من خلال اتباع ثلاثة مراحل هي:

- أولا: كما رأينا سابقا، فإن قيمة أية سلعة، هي بشكل عام، نسبة متوسط كمية العمل الاجتماعي المتضمن فيها؛
- ثانيا: إن قيمة العمل المقدمة تقاس مثلما تقاس أية سلعة. فالأجر الذي يقدمه الرأسمالي للعامل مقابل قوة العمل التي يقدمها هذا الأخير، يكون مساويا لكمية العمل الاجتماعي الضروري لضمان بقاء العامل و أسرته؛
- ثالثا: إن وقت عمل العامل الضروري لكي ينتج قيمة مساوية لتلك التي يحصل عليها في شكل أجر، تكون أقل من الوقت الفعلي للعمل الذي يقدمه.

إن الفرق بين كمية القيمة المنتجة من طرف العامل خلال عمله الفعلي و بين تلك التي يتلقاها في شكل أجر، هو الذي يشكل فائض القيمة.

لقد كان ماركس جد راض عن برهانه، لأنه كان يبدو له أنه كان علميا و مقنعا. لقد كان هذا البرهان يسمح بالتأكيد على ظاهرة استغلال البروليتاريا من طرف الرأسمالي، و خاصة البرهنة على أن هذا الاستغلال لم يكن نتيجة قرار إرادي من طرف أرباب العمل، لكن على العكس من ذلك، هو نتيجة حتمية للنظام الرأسمالي نفسه. لكن هذا البرهان الماركسي مهما كان مقنعا كما يبدو، إلا أننا يمكن أن نعترض عليه كما يلي :

- أولا: نظرية القيمة: فإذا كانت السلع تتبادل وفق نسبة كمية العمل الاجتماعي المركز فيها، فإن ماركس لا يرى بأن هذه الكمية قد تكون ثابتة. فقد يتم التبادل بقيمة أقل أو أكبر من قيمة العمل المبذول تبعا لظروف السوق. مثلا: إذا كان الطلب لا يرتبط بسلعة، فإن العمل الاجتماعي المركز في هذه السلعة لن يكون له أية قيمة. و تبعا لذلك فإن النسبة بين القيمة و كمية العمل تفترض توفر طلب عادي على السلعة المعنية، و هو ما يجعلنا نستبعد تغيرات أسعار السلع الموجودة في واقع السوق. إذن فإن المفهوم الماركسي للقيمة لن يكون صحيحا، إلا في سوق مجردة و نظرية، مثل تلك السوق التي عاتب عليها ماركس الاقتصاديين الليبراليين الذين كان يعتقد أنهم يبنونها (السوق)

- ثانيا: المفهوم الماركسي للأجر: يقدم ماركس مفهوما للأجر و كأنه مسلّم، بالرغم من أنه قابل للمناقشة. يفترض و يعتقد ماركس أن العامل عندما يريد كراء قوة عمله، فإنه لا يمكن مبادلة هذه القوة إلا بقيمتها، أي كمية العمل الضرورية لضمان العامل و أسرته على قيد الحياة، لكن في هذه الحالة، فإن الأمر لا يتعلق بكمية العمل التي يتم إنتاجها، لأننا سنكون في حالة تبادل بيولوجي و ليس في حالة تبادل اجتماعي، إنها كمية

العمل الضرورية ليستطيع العامل أن يعيش. إننا هنا أمام قطعة هامة في منطق التفكير: فماركس ينتقل هنا من كمية العمل المتضمنة لتحديد قيمة السلعة، إلى كمية العمل الضرورية من أجل العيش عندما يتعلق الأمر بتحديد الأجر. و هنا ننتقل من شيء موضوعي و يمكن قياسه كميًا في الحالة الأولى، إلى عنصر متغير و غير قابل للقياس الكمي في الحالة الثانية، لأنه يتغير وفقا لحالة الآداب و البسيكولوجيا الجماعية.

- ثالثا: و من خلال العنصر السابق يصل ماركس إلى الثالث. يجب أن نعرف أن وقت العمل الضروري لإنتاج قيمة يعبر عنها الأجر، يجب أن يكون أقل من وقت العمل الفعلي. و هنا فإن ماركس يبني برهانه على أساس أن صاحب العمل يجد الربح الذي يحققه في الساعات الأخيرة من عمل العامل. و لفترة معينة، فإن أرباب العمل الذين يعارضون تقليص وقت العمل، قد دعموا من موقف ماركس هذا، باعتبار أنهم يقدمون الدليل على أنهم يعتبرون بأن ربحهم موجود في الساعات الأخيرة من عمل موظفيهم. و منذ ذلك الحين، فقد عرف وقت العمل تخفيضات و مع ذلك ما زال الربح الرأسمالي قائما و، في بعض الحالات، فقد ازداد هذا الربح. لا تخلو النظرية الماركسية من العيوب، لأنها تفضي لاستنتاجات معاكسة لتحليل الواقع الذي يمكن أن نقوم به.

و إلى جانب الاستغلال الاقتصادي، يوجد استغلال سياسي للبروليتاريا من طرف البرجوازية. فالبرجوازية تهيمن على البروليتاريا و تعطىها حرية ظاهرية فقط. فالديموقراطية البرجوازية و الديمقراطية الليبرالية تناسب النظام السياسي الذي أسسته البرجوازية المنتصرة على الإقطاعية. فحسب التحليل الذي يعطيه ماركس للدولة، فإن هته الأخيرة موجودة بين أيدي الطبقة البرجوازية. إن الديمقراطية الليبرالية و بمفاهيمها للحرية و تقنيات تنظيم السلطات التي تطبقها، ماهي إلا وسيلة للدفاع عن مصالح البرجوازية. و هذا لا يعني أن الديمقراطية الليبرالية ليست أحسن من بعض أشكال التنظيم السياسي. فماركس يشير إلى أن هته الديمقراطية الليبرالية مفصلة على الملكية المطلقة، و أنها شكلت تطورا كبيرا بالنسبة لهذا الحكم الملكي المطلق؛ لكن، بالرغم من أنها تقدم بعض المزايا الحسنة، فإن الديمقراطية البرجوازية لا تبقى من دون عيوب. و هكذا، فإن استعمال الاقتراح العام الذي تستخدمه البرجوازية، لا يمكن اعتباره كدليل على الطابع الديمقراطي الحقيقي للتنظيم السياسي. يعتقد ماركس أن الاقتراح العام ما هو إلا مؤشر على النضج السياسي للطبقة العاملة؛ إذن، تعتقد البروليتاريا في بعض الحالات أنها تشارك في الحياة السياسية و أنها لها نشاط سياسي، غير أن هذا ما هو إلا سراب، لأن البرجوازية تعطى فقط مظهر للحرية، و لا تنازل إلا عن ديموقراطية خاطئة. تبعا لما سبق و كنتيجة لذلك، فإن الأغلبية البروليتارية تتعرض لاستغلال مزدوج بفعل الأقلية البرجوازية و التي لا تستطيع إلا أن تؤدي إلى ولادة الثورات و الصراخ. لكن، كيف سيحل هذا الصراع؟ للإجابة على هذا التساؤل، لابد من مراجعة المفهوم الماركسي للدولة.

4/- المفهوم الماركسي للدولة:

لقد رفض ماركس نظرية الدولة التي قدمها الليبراليون و هيغل على حد سواء، فالدولة حسب وجهة نظر ماركس ليست وسيلة للمصالحة بين الفضاء الخاص و التطلعات بشكل عام، و لا هي ذلك الشيء العام كما يدعى الليبراليون الكلاسيكيون. الدولة هي نتيجة صراع الطبقات و هي وسيلة هذا الصراع.

أ/- الدولة هي نتاج صراع الطبقات: في تحليله للدولة، يعرفها ماركس على أنها نتاج الصراع و التعارض بين الطبقات. ففي كل مجتمع يحدث صراع بين طبقتين اجتماعيتين. إحداهما كانت تمثل في السابق قوى الإنتاج القائمة، و قد جسدت هيمنتها الاقتصادية من خلال التمكن من احتلال الدولة. فلا يمكن أن توجد الدولة إلا إذا كان هناك صراع الطبقات. فلا يمكن اعتبار الدولة إلا كوسيلة موجودة بين يدي الطبقة المهيمنة. فهذه الدولة لها معنى إلا لأن هنالك طبقة اجتماعية مهيمنة عليها و لهذا نستطيع أن نقول أن الدولة تنتج صراخ الطبقات، و أنها وسيلة قهر الأغلبية من طرف الأقلية. بالفعل، فبمجرد أن تستولي طبقة على الدولة. لأنه لا يمكن أن توجد دولة دون أن تكون في يد طبقة ما. فإنها ستتحكم فيها و تستعملها. أي تستخدم و توظف عناصر الدولة و هي: الجيش، الإدارة، الشرطة، القوى الخاصة للقمع. للحفاظ على سلطتها الاقتصادية و منع ثورة الطبقة المقهورة.

إن النقطة التي يركّز عليها ماركس و بشكل خاص هي، أنه و باستثناء فترات تاريخية استثنائية و خاصة بشكل حقيقي، فإنه لا يمكن أن تكون هناك دولة محايدة. فالدولة هي دائما سلطة طبقة ضد الطبقات الأخرى. باعتبار أن الدولة هي ثمة الصراع الطبقي، فإنه من المهم طرح تساؤل لمعرفة مصير الدولة عندما يكف و ينتهي الصراع. في هته الحالة يجيب ماركس و إنجلز أن ما يحدث هو ضعف الدولة و زوال حيويتها.

ب/- ضعف الدولة Le Dépérissement de l'Etat : لقد تم تناول هته المسألة من طرف إنجلز و خاصة في كتاب أصل العائلة و الملكية الخاصة و الدولة L'Origine de la Famille de la Propriété Privée et de l'Etat. تعتبر طريقة التفكير منطقية و جاءت بالشكل التالي: الدولة، كما نعرف، هي نتاج الصراع بين الطبقات؛ و عليه، و في إطار نظام شيوعي أين تنعدم الطبقات و بالتالي انعدام الصراع الطبقي، تفقد الدولة أسباب و منطق وجودها. إن الأمر هنا لا يتعلق بإلغاء الدولة، و هته الأطروحة هي إحدى أسباب التعارض بين ماركس و الفوضويين، و لكن الأمر يتعلق بضعف الدولة و فقدانها لحيويتها، و مع فقدان الصراع الطبقي لشدته و قوته، و عندما تزول البرجوازية و طرق التفكير الخاصة بها، تبدأ الدولة بالضعف و فقدان حيويتها لأنها تكون قد فقدت أسباب و منطق وجودها، و لأن ليس لها من دور تقوم به. و يحدّد ماركس الخطوط العريضة لضعف الدولة في بيان الحزب الشيوعي Le Manifeste du Parti Communiste :

" عندما تختفي الصراعات في إطار مسار التطور، و عندما يتركز الإنتاج بين أيدي الأفراد المشتركين، تفقد السلطة العامة طابعها السياسي. إن السلطة السياسية بالمعنى الضيق للكلمة، هي السلطة المنظمة لطبقة لاضطهاد طبقة أخرى. فإذا كانت البروليتاريا، في صراعها ضد البرجوازية، مجبرة على الاتحاد في طبقة واحدة، و إذا استطاعت هته البروليتاريا من خلال ثورة أن تتشكّل كطبقة مهيمنة و، باعتبارها هكذا، فستهدم بعنف علاقات الإنتاج القديمة . و عندها تهدم في نفس الوقت نظام الإنتاج و شروط وجود صراع الطبقات؛ و عندها كذلك تهدم الطبقات بشكل عام و، في نفس الوقت، هيمنتها الذاتية كطبقة. فالمجتمع البرجوازي القديم، بطبقاته و صراع طبقاته، يترك المكان لتنظيم جمعي أين يكون النمو و الازدهار الحر للفرد الواحد هو شرط النمو و الازدهار الحر للكل ."

و فقط عندما تنتهي الدولة من الانحيار و الضعف، يمكن الحديث عن الحرية، لأن ماركس واضح جدا في هته المسألة، ما دامت الدولة قائمة، لا يمكن الحديث عن الحرية. و في مرحلة التطور الاجتماعي هته تحل إدارة الأشياء محل حكومة الأفراد.

5/- الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية:

يطرح هذا الانتقال مشكلتين: أولاً، كيف سيتم هذا الانتقال، و هل يستدعي القيام بثورة أم يمكن أن تتفادى ذلك؟ و ثانياً، كيف ستجرى المرحلة الانتقالية، و هل سيكون العنف ضروري أم لا؟.

أ/- ضرورة الثورة: في إطار الفكر الماركسي، فإن كل الثورات تناسب لتعريف عام أعطاه ماركس في مستوى ما من تطور هته الثورات: " تدخل قوى الإنتاج المادية في تناقض مع علاقات الإنتاج القائمة أو، ما هو تعبير قانوني، مع علاقات الملكية و التي من خلالها تطورت لحد الآن ... من علاقات التطور إلى علاقات الإنتاج التي كانت، تتحول هته العلاقات لعوائق أمام تطور القوى الإنتاجية. إذن تبدأ مرحلة ثورة اجتماعية ."

وفقا لذلك فإن الثورة هي ظاهرة جدلية. فالثورة ما هي إلا نتيجة عدم التواء بين قوى الإنتاج و علاقات الإنتاج. إن الجماعة المستفيدة من هذا و التي هي فاعل هذا التحول، تأخذ الوعي بالتحولات التي حدثت على مستوى البنية التحتية. لا يمكن لهذا الوعي أن يتعدّى الحالة الملموسة و الخاصة للجماعة. بالفعل، فالجماعة ليس لها وعي بأن الأمر يتعلق بثورة اجتماعية. بالرغم من أن الطبقة المهيمنة الجديدة، و التي تنشأ عن التحول، تظن أنها تعمّم ازدهارها و نموّها الذاتي و الخاص بما لتجعل منه عاماً، أي ازدهار عالمي. و هي بهذا تأسس الخيال بأن كل المجتمع يوجد في نفس الوضعية التي توجد هي فيها بالنسبة لقوى الإنتاج:

" 1- خلال مرحلة معينة من تطور قوى الإنتاج، نلاحظ بروز قوى إنتاج و وسائل تجارية التي، في الظروف الحالية، لا تسبّب إلا آلاماً. فهي ليست قوى إنتاج بل قوى تهديم (مكنة و مال). نتيجة أخرى، هي بروز طبقة يقع عليها تحمل كل

تكاليف المجتمع من دون أن تتمكن من التمتع بالمزايا؛ طبقة يتم تهميشها و رميها خارج المجتمع، بالضرورة تصبح معارضة بشكل صارم للطبقات الأخرى؛ طبقة تشكل أغلبية كل أعضاء المجتمع و التي منها ينبع الوعي بضرورة ثورة في العمق، ثورة شيوعية، و يمكن أن تتشكل هته الطبقة، طبيعياً، بين الطبقات الأخرى بفضل و بسبب المخاوف من دور هته الطبقة .

" 2- إن الظروف التي يتوقف عليها استعمال قوى إنتاجية محددة، هي تلك التي يفرضها حكم طبقة محددة من المجتمع، و التي تعتبر سلطتها الاجتماعية ثمرة ملكياتها المادية، حيث تجد هته الطبقة تعبيرها المثالي و العملي في نمط الدولة القائم في نفس الوقت؛ و لهذا فإن كل صراع ثوري يكون موجّه ضد طبقة طالت فترة هيمنتها .

" 3- لحد الآن، فإن كل الثورات قد تركت دائماً نمط النشاطات قائماً؛ فالأمر إنما يتعلق بإعادة توزيع هته النشاطات، أي بتوزيع جديد للعمل بين أشخاص آخرين. بالمقابل، فإن الثورة الشيوعية، باعتبارها تقوم ضد النمط التقليدي للنشاطات، فإنها تتخلص من العمل و تقضي على الهيمنة التي تمارسها كل الطبقات من خلال القضاء على الطبقات نفسها، و باعتبار أن هته الثورة هي إنجاز الطبقة التي ليس لها صف الطبقة في المجتمع و لا يعترف بها كذلك (على أنها طبقة) : من الآن، فهي تشير إلى حل كل الطبقات، كل القوميات،... ضمن المجتمع الحاضر .

" 4- لإنتاج هذا الوعي بشكل جماعي و مكثّف،...، يجب حدوث تحوّل يمسّ كتلة الأفراد، و الذي لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال حركة عملية، أي ثورة. و عليه فإن الثورة ليست ضرورية فقط لأنه لا توجد وسائل للإطاحة بالطبقة المهيمنة، و لكن كذلك في الثورة فقط تستطيع طبقة الانقلاب أن تتخلص من كل التنظيمات القديمة و تصبح بذلك قادرة على إعطاء أسس جديدة للمجتمع .

يشير هذا النص الهام إلى الأسباب التي تجعل من الثورة البروليتارية مختلفة عن الثورات الأخرى. فحسب ماركس، فإن الثورات السابقة كانت ثورات سياسية، لأنها كانت تفضي و تنتهي بتأسيس بني فوقية سياسية، لم تكن تحقّق العالمية إلا من خلال المجرّد و أنها لم تكن تعكس كائن صحيح مندمج داخل علاقات الإنتاج. تكون الثورة الاجتماعية ممكنة فقط، عندما يفقد العنصر الثوري كل خصوصية بشكل فعلي و حقيقي. و البروليتاريا وحدها هي التي تستطيع أن تكون هذا العنصر الثوري لأنه عبارة عن " تذويب لكل الطبقات، و لا يطالب بأي حق خاص، و لكن حق في الذات ". فمن خلال القضاء على كل أشكال التملّك الفردي، و من خلال العمل على إنهاء كل أشكال العمل القائم على التنازل الإرادي، أي القضاء على كل ما كان يشكل الحركة الجدلية للتاريخ، فإن الثورة البروليتارية لا يمكن اعتبارها لحظة تاريخية بسيطة، و لكنها تشكل نهاية التاريخ، لأن معها تزول التناقضات.

2/- ديكتاتورية البروليتاريا: دور العنف: يمكن أن نتساءل: هل أن العنف ضروري لإحداث التحوّل في المجتمع؟. يعتبر العنف ضروري لهته الغاية، لأنه لا يوجد تحوّل اجتماعي حقيقي من دون عنف و الذي هو، بتعبير ماركس، مولّد المجتمعات الجديدة. غير أن الثورة لا تشكل غاية في حد ذاتها؛ فيجب أن يكون هناك مرحلة انتقالية بين الرأسمالية و الاشتراكية، هته المرحلة تحمل إسم ديكتاتورية البروليتاريا. فإذا كانت ضرورة الصراع ضد بقايا البرجوازية خلال ديكتاتورية البروليتاريا قد طرحت من طرف ماركس، فإن طرق هذا الصراع لم تحدّد. فلا نعرف متى يجب أن تبدأ، كم ستستغرق من الوقت، من سيمارسها، إما حزب أو الأغلبية. كل ما نعلم هو أن مع ديكتاتورية البروليتاريا سيتم ممارسة سلطة مطلقة. لقد تم تطوير إشكالية ديكتاتورية البروليتاريا من طرف لينين التي جعل لها نظرية و تطبيقاً.

6/- خصائص المجتمع الشيوعي:

يشكّل المجتمع الشيوعي نقطة وصول و نهاية التطور الجدلي. يشير ماركس إلى أن هذا المجتمع سيتحقق؛ فبالنسبة إليه فإن ذلك يعتبر نتيجة حتمية، لكنه لا يحدد الوقت و الوسائل اللازمة لذلك. فهو ببساطة يعلم أن هذا المجتمع الشيوعي سيتحقق، و لا يعرفه إلا باختصار. حيث يعطي التعريف التالي:

" الشيوعية باعتبارها هدم وضعي للملكية الخاصة المعتيرة كفصل للإنسان عن نفسه، إذن الشيوعية، بإعادة تملّك حقيقي لجوهر الإنسان من طرف الإنسان و من أجل الإنسان، إذن كعودة الإنسان إلى نفسه باعتباره إنساناً

اجتماعي، أي الإنسان الإنساني، عودة كلية، واعى مع الحفاظ على كل ثروة التطور السابق. باعتبار هته الشيوعية مطابقة لقوانين الطبيعة المكتملة فهي تصادف الإنسانية؛ إنها النهاية الحقيقية للخلاف مع الطبيعة و بين الإنسان و الإنسان، بين الموضوعي و تأكيد الذات، بين الحرية و الضرورة، بين الفرد و الجنس (البشري) فالشيوعية تحل سر التاريخ و هي تدرك أنها تحله .

تبدو هته الفقرة معقدة ظاهرياً، وبالرغم من ذلك فهي في غاية الوضوح. إذ يمكننا أن نقدم، في أسطر، كيف سيكون المجتمع الشيوعي. فعلى مستوى العلاقات الاقتصادية، سوف ننتقل من التوزيع القائم على مبدأ " كل حسب قدراته "، إلى تطبيق مبدأ " لكل حسب حاجاته ". يعتبر هذا التحول في طرق التوزيع، حسب ماركس، أحد أهم مميزات المجتمع الاشتراكي. و أكثر و أهم من ذلك فإننا نشهد تحول الإنسان؛ فالإنسان الشيوعي لا يشبه الإنسان الاشتراكي و خاصة الإنسان البرجوازي. إن الإنسان الشيوعي هو إنسان حلي و الذي لم يعد يتنازل إرادياً. و سيميز هذا المجتمع الشيوعي كذلك بظهور الحرية الحقيقية، باعتبار أنها لا يمكن أن توجد فعلياً إلا انطلاقاً من اللحظة التي تختفي فيها الدولة. لكن، فإن أحد آثار المجتمع الشيوعي هو الدلالة نفسها على الانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية، أي اختفاء الدولة و هو ما يشكل المرحلة النهائية من ضعف الدولة.

يعتبر ضعف الدولة ظاهرة لا يمكن تجنبها في إطار نظام اشتراكي، و ضعف الدولة هذا، لا علاقة له مع اختفاء الدولة الذي سيكون نتيجة إرادة بيئة و واضحة، مثل ما يتصوره الفوضويون مثلاً. و في المجتمع الشيوعي، إذا لم تكن هناك دولة، فإن هناك وجود لسلطة و لكنهما ستكون سلطة اجتماعية.